محاضرة "صورة المرأة في التلفزيون والسينما"
منتدى صوت المرأة
لقاءات فرنسية – بحرينية
بسام الذوادي – مخرج سينمائي – مملكة البحرين

مقدمة:
أن قضية المرأة أفقها مفتوح للتشخيص والفهم والاستيعاب

في السابق عندما كنت في سن العاشرة، كنت أعتقد بأن التلفزيون هو ملك للمرأة من خلال برنامج "ماما أنيسة" الذي كان يبث وقتها من خلال تلفزيون الكويت.
وبقت هذه الفكرة حتى وصلت إلى سن المراهقة، بحيث تحول التلفزيون إلى ملك خاص بالرجال في مسلسلات بونانزا ومزرعة هاي شبرال والهارب، وبقدرة قادر تحول مفهومي البسيط من المرأة إلى الرجل، وبما أنني أنتمي إلى عالم الرجال فقد أصبح من المهم والضروري أن أتقمص نظرتهم وأشعر بقوتهم وسيطرتهم على كل الأمور في الدنيا ومن ضمنها المرأة، التي وجدتها في هذه المسلسلات مجرد أم أو حبيبة تنتظر وغالبا ما تكون جسد فقط.
وطبعا أنصب تفكيري واعتقادي وشعوري على شيء واحد فقط في هذه المسلسلات وهو أن المرأة فقط للمنزل أو المستشفى أو المدرسة مثلما تروج لها هذه المسلسلات.
وأنقلب هذا المفهوم عندي عندما أصبحت في سن السادسة عشر، ومن كثرة متابعتي للأفلام والمسلسلات الأجنبية، حيث تحولت الفكرة بالنسبة للمرأة من أم أو مدرسة أو زوجة إلى آله جنسية مهمة للرجل ليكمل مسيرته في الحياة وليسجل بطولاته التي كانت حلمنا جميعاً نحن الشبيبة، وأصبحت جزء لا يتجزأ من تفكيري ومن هم في سني وبدأنا نحفظ أسماء الممثلات (بارجيت باردو – راكيل والش – صوفيا لورين) وتفاصيل أجسادهم، وبعدها عرفنا مارلين مونرو التي تحسرنا على موتها قبل أن نعي الفكرة الأساسية أو السبب الأساسي لوجود المرأة.
وبقت المرأة بالنسبة لي مجرد جسد مكمل لأحداث أي فيلم أو مسلسل، حتى شاهدت فيلم الفنانة فاتن حمامة "أريد حلاً".
بصراحة هذا الفيلم قلب الكثير من الموازين في مفهومي للمرأة في ذلك الوقت وحيرني كثيراً، وأثار لدي الكثير من التساؤلات:
لماذا تريد أن تترك زوجها وهو الذي يعطيها (الجنس) في كل وقت؟
هل يحق للمرأة أن تحب شخصاً آخر غير زوجها، وهي لا تزال على ذمته؟
ما هذا القانون الذي تطالب به النساء والمعنون "بقانون الأحوال الشخصية"؟
والكثير من الأسئلة المحيرة بالنسبة لي وقتها والتي لم أعرف لها إجابة، وهذا ما دفعني إلى أن أسأل الوالدة عن ماهية قانون الأحوال الشخصية وهل للمرأة مطالب أخرى لا أعرفها؟ وطبعا الوالدة نظرت إلى بكل حب ورد "أنت بعدك صغير يا ولدي... بكره تكبر وتعرف".
طبعاً أشك بأنه كان لديها جواب عن قانون الأحوال الشخصية ولكني كنت شبه متأكد بأن لديها جواب عن النص الثاني من السؤال وهو بأن للمرأة مطالب.
ومع الوقت والبحث البسيط عرفت بأن المرأة ليست للجنس فقط وإنما هي إنسان يشاركني في كل شيء. قد لا أكون مستوعب لمعنى كلمة (كل شيء) ولكنه كل شيء.
وخلال دراستي للسينما بالقاهرة تكشفت الكثير من الأمور من خلال الإتحاد الوطني لطلبة البحرين وبعض الأحزاب المصرية التي كنت أتردد عليها بدافع الفضول والمعرفة، كل هذه الأمور غيرت نظرتي للمرأة.

صورة المرأة في الكتاب:
الصورة المكتوبة للمرأة بالنسبة لي كانت مهمة ولم أكن أجدها عند المرأة بشكل كبير وكانت روايات الرجل بصورها هي المسيطرة وخصوصاً رواية موسم الهجرة للشمال للكاتب السوداني الطيب صالح.
وتساءلت في ذلك الوقت أين المرأة عن تجسيد صورتها بالشكل الذي تريد من الرجل أن يفهمها؟
في القاهرة خلال فترة دراستي قرأت عن هدى شعراوي والشاعرة فدوى طوقان والشاعرة مي زيادة وكانت كلها ثقيلة على عقلي الصغير الآتي من الخليج، حيث أن تحرير المرأة ونضالها وحبها المحلل والمحرم بمفهومي كان جرعة كبيرة على إستيعابي لها، لذلك بدأت في البحث عن صورة المرأة بشكل متدرج يستوعبه عقلي شيئاً فشيئاً

وكانت الشاعرة غادة السمان أول من بدأ التغيير لرؤيتي للمرأة، فمن خلال قصائدها التي خلطت العقل بالجسد وكونت كيان مختلف بالنسبة لي أصبحت أستوعب بأن المرأة عقل وجسد ومن هذه القصائد عرفت بأن هناك حالات تمرد عاطفية وجسدية للمرأة على الرجل.
لكني شعرت بأني أريد أن أذهب أعمق لمعرفة المرأة من خلال كتاباتها و كانت الكاتبة نوال السعداوي أول من وضع يدي على البداية بغض النظر عن اتفاقي معها من عدمه.

تعرضت المرأة للمرأة في السينما أيضاً بشكل ضعيف، فقد استغلت المرأة نفسها وجسدها حتى في أفلامها الروائية السينما الأمريكية تغلبت على هذا المفهوم بعد وقت طويل (نسبةً لعمر السينما الأمريكية) عندما حولت المرأة إلى باحثة ومصلحة وكاشفة للفساد وقاتلة وفقيرة وبرجوازية... إلخ من الشخصيات التي كانت قاصرة على الرجل فقط وتبعتها السينما الأوروبية ثم الأسيوية ثم العربية وأخيراً الأفريقية.
ولكن تبقى الصورة ناقصة... فهناك الكاتبات والصحفيات والمخرجات والممثلات ولكن دائماً يبقى دعم المرأة للمرأة هو العنصر الناقص، فالمتلقية لكل هذا الكم الهائل من النصوص والأفلام النسوية لا تمثل الدعم الكافي لها، وذلك من خلال المتابعة والتحليل ووضع النقاط والمفاهيم الخاطئة في بقعة الضوء.

قرأت الكثير من النصوص وشاهدت معظم المسلسلات الخليجية وبسبب قلة وعي الصانع أو سيطرة الفكر السائد والقديم عليه استنتجت التالي وهو مقارب للذي تم استنتاجه في دراسة للسيدة ختام محمود محمد من جمهورية مصر العربية:
1- تقدم هذه القصص المرأة بشكل سلبي (فهي دائماً بحاجة إلى عون وغالباً ما تتوقع هذا العون من الرجل وهي ضعيفة القدرة على اتخاذ القرار وتفتقر إلى المبادرة وغالباً ما يكون مصيرها الفشل في المواقف الصعبة).

2- خروج المرأة إلى العمل نتج عن عوز اقتصادي أو عن فشل في الحياة الأسرية ولم ينشأ عن إحساس بأهمية العمل أو ضرورته.

3- تبرز هذه القصص الشخصية الإيجابية والمستقلة والبناءة للمرأة ولكنها تظهرها في مواقف تدافع فيها المرأة عن قضايا تخصها وفي مواقف تتعلق بها شخصياً (اختيار شريك حياتها مثلاً)، ونادراً ما تصور هذه القصص المرأة العصرية التي تدافع عن قضايا أو مواقف عامة بل فقط عن مواقف شخصية وعن أمور عاطفية.

الإعلان:
وكان استخدام الإعلان للمرأة كونه أداة جذب وطعما للتشجيع على الاستهلاك فتظهر فيه مخلوقا ساذجا لا هم له إلا الأكل والشرب والتجميل، فالمرأة تستخدم للإعلان عن السلع لجذب الرجل والمرأة على السواء، فالإعلان يدعوها إلى أن تجعل نفسها في دور المرأة التي حصلت على أعلى أمنية بشراء السلعة، أما الرجل فيغريه الإعلان بالحصول على المرأة الجميلة التي تعرض السلعة، كجائزة لشراء هذه السلعة وحتى الإعلانات التي تصور المرأة في مواقع العمل تصورها على أنها أنثى الرجل وتجذبه، إن استخدام المرأة على هذا النحو في الإعلانات يقلل من نظرة الاحترام إليها في نفس الرجل وفي نفسها هي، حيث يرسخ الإعلان قيمة المرأة ليس بما تملك وبما تنتج بل بما تستهلك وغدت السلعة التي تستهلكها هي مصدر الحب والنجاح والتطور، ظناً منها أنها بشرائها السلعة تشتري الاحترام الاجتماعي والصحة والجمال وتتمكن بفضلها من تصحيح الأخطاء والنواقص في شخصها، لأن المعلنين باعتمادهم الأساليب النفسية كافة نجحوا في تحويل الفكر النقدي للمستهلك نحو ذاته وليس نحو السلعة.

وبما أنني أعمل في مجال الإخراج السينمائي كل هذه الأمور جعلتني أقف وأفكر كيف آخذ موقفاً إيجابياً من خلال أعمالي بدلاً من أن أنتقد المرأة، وقلت لنفسي لماذا لا أساهم في دعم المرأة إعلامياً من خلال التلفزيون أو السينما، وكانت المرأة جزء أساسي من أعمالي منذ الثمانينات وحتى اليوم، وهذا ما أتمنى من المرأة أن تقوم به بدل نقد الإعلام والسينما وبأن الإعلام لم ينصف المرأة والسينما والتلفزيون أظهرا المرأة كسلعة، يجب على المرأة أن تعمل وتثبت وجودها وأن تعرض الصورة التي تراها هي مناسبة من خلال وسائل الإعلام سواً من خلال الكتب أو الصحف أو الإذاعة والتلفزيون وصولاً للسينما.

صحيح بأن هناك الكثير من المؤتمرات التي تناقش صورة المرأة في الإعلام، ويتم إتخاذ الكثير من القرارات والتوصيات ولكن تفعيل هذه القرارات بطيء جداً وقد يكون لأسباب كثيرة من ضمنها وجود الرجل في مواقع أخذ القرار ولكن الاستمرار لن يأتي فقط من النساء المثقفات والمهتمات بدور المرأة وإنما مثلما قلت سابقاً من دعم القاعدة النسائية في المجتمع.

اليوم المرأة في السينما الإيرانية رغم كل الظروف القاسية المحيطة بها قد وصلت إلى نقطة لابد لنا من الوقوف أمامها احتراما، فهناك القضايا الاجتماعية بمنظور مختلف وكذلك السياسية. وهذا ليس بسبب المرأة وحدها وإنما بتعاون المثقفين من رجال ونساء وإصرارهم على إظهار الصورة المناسبة للمرأة والرجل في هذه السينما، لعلمهم وتيقنهم بمدى تأثير هذه الصناعة على المجتمع الدولي.

بسام الذوادي
مخرج سينمائي
منتدى صوت المرأة
28 نوفمبر 2006